**المحاضرة 01**

**الاستشراق :المفهوم .النشأة والتطور**

**تعريف الاستشراق :**

لقد مر المفهوم العلمي لكلمتي " الإستشراق" و" المستشرق" بأدوار مختلفة منذ عام 1683م عندما كان يطلق على أحد أعضاء الكنيسة الشرقية، إن كلمي " المستشرق" و"الإستشراق" علميا حديثتا العهد في الإنجليزية والفرنسية، وأول ما ظهر مصطلح "مستشرق" – وهو الأسبق بالنسبة لمصطلح "استشراق - كان في أوروبا، "ليطلق کوصف ثقافي وعلمي حديث على مختصين أوروبيين في ثقافة الشرق ولغاته وتراثه وحضاراته."وأول ظهور له كان في انجلترا قبل غيرها سنة 1779م ثم بعد ذلك بعشرين عاما ظهر المصطلح في فرنسا سنة 1799م ليعم بعد ذلك مختلف الحواضر في الدول الأوروبية".

أما كلمة "استشراق" فكان ظهورها متأخرا نسبيا وعرفتها اللغة الانجليزية قبل غيرها سنة 1811م ثم عرفتها اللغة الفرنسية عام 1830م ، وبعد ذلك بقليل جاء الاعتراف بهما داخل الأكاديمية الفرنسية فأدخلتهما إلى معجمها الشهير عام 1938م". ومن المعاجم الغربية الحديثة انتقل المصطلحان إلى المعاجم اللغوية العربية الحديثة والمعاصرة - إذ من المعلوم أن لفظة استشراق التي نبحث عن مفهومها اللغوي "لم ترد في المعاجم العربية المختلفة . ونحن هنا نقصد المعاجم العربية التراثية القديمة في معظمها.

**أ-لـــــــــــــغـــــــــــــــــــــــــة**:

جاء في "لسان العرب": شرق : شرقت الشمس تشرق شروقا وشرقا: طلعت. واسم الموضع المشرق، والشرق : المشرق والجمع أشراق.

**والتشريق**: الأخذ في ناحية الشرق .. وشرقوا: ذهبوا إلى الشرق أو أتوا الشرق". كذلك تقريبا نجد في القاموس المحيط هذا في ما يخص المعاجم العربية القديمة التي خلت من اللفظة المراد البحث عنها - أي الاستشراق - حيث هي غير معروفة آنذاك وأقرب لفظة للمعنى المراد هي كلمة " استعراب" و"مستعرب" والتي تعني دخول غير العرب في لغة العرب وآثارهم وتقاليدهم وتمكنهم منها تمكنا متفاوتا.

أما حين نستقصي المعاجم العربية الحديثة فإننا نجد لفظة " الاستشراق" في حلها، ففي المنهل نجد تحديدا جميلا للمفاهيم على النمط الآتي: "جاءت لفظتا شرق ومستشرق مقابلتان للفظة الفرنسية " Orient" و" Orientaliste" لوصف أهل الشرق أو الشرقيين. وOriental هو الشرقي والمشرقي. "Orientalisant" لوصف كل متأثر بالشرق. أما الاستشراق فيعبر عنها بلفظة Orientalisme التي لها أيضا معنى حب الأشياء الشرقية والمستشرق أوالعالم باللغات والآداب الشرقية ، هو. "Orientaliste"

- إستشراق : اتجاه الغربيين نحو الاهتمام بتراث الشرق وحضاراته ولغاته. مستشرق والجمع مستشرقون: أديب غربي يهتم بدرس تراث الشرق وحضاراته ولغاته".

ولا تخرج الدلالة اللفظية لكلمتي "مستشرق" و"استشراق" في المعاجم العربية الحديثة عن تلك الموجودة والمتعارف عليها في أمهات المعاجم الغربية، الفرنسية منها خاصة

**ب- اصطلاحا:**

إن الباحث عن تعریف محدد للإستشراق سيجد نفسه أمام سيل من التعريفات, وكلها لا يكون شاملا جامعا مانعا". ولكن نورد بعض التعريفات التي دمجها علماء غربيون من المستشرقين وغيرهم.

يقول رودي بارت: ".. الإستشراق هو علم الشرق أو علم العالم الشرقي". ويصفه جويدي في معرض حديثه عن فحوى الإستشراق وأهدافه بأنه التعمق.." في درس أحوال الشعوب الشرقية ولغاتها وتاريخها وحضارتها"، وغير بعيد عن هذا يرى ديتريش أن المستشرق هو ذلك الباحث الذي يحاول دراسة الشرق وتفهمه ولن يتأتى له الوصول إلى نتائج سلمية في هذا المضمار ما لم يتقن لغات الشرق".

أما في الجانب العربي، فلا يختلف التعريف عن سابثيه, فهذا أحمد حسن الزيات يرى أن الإستشراق اليوم هو "دراسة الغربيين لتاريخ الشرق وأممه ولغاته وآدابه وعلومه وعاداته ومعتقداته وأساطيره" وعند اسمايلوفيتش فهو التبحر في لغات الشرق و آدابه.

أما ادوارد سعيد فيرى أن "الاستشراق أسلوب من الفكر قائم على تمییز وجودي ومعرفي بين الشرق وفي معظم الأحيان الغرب " وهو- أي الإستشراق - " الدراسة المتقصية المتنوعة المتعددة الأغراض التي مارسها الغربيون لمحاولة فهم الشرق والتعرف إلى کنوزه الحضارية.

**نشأة الاشتشراق :**

إنه لمن العسير تحديد النشأة التاريخية للإستشراق بسنة معينة، لكثرة اختلاف الباحثين في هذه النقطة، فهناك أشخاصا يحملوا نشأة الاستشراق إلى عصور سحيقة مثل أول لقاء بين الرسول محمد -ص- ونصاری نحران، أو إلى إرساله - ص - سفراء إلى ملوك العالم آنذاك. وإن كنا لا نتفق مع معظم هذه الآراء، فإننا يجب أن نعترف أن الهبة التي أحدثها ظهور الإسلام في الجزيرة العربية وسرعة انتشاره وتعاظم قوته ونفوذه، إذ كيف يعقل أن شرذمة من القبائل المتناحرة المتفرقة تتوحد وتأخذ على عاتقها تأسیس دولة سياسية وعسكرية، فلا تمر مائة عام منذ بدء الدعوة الإسلامية حتى أصبحت الدولة الوليدة تمتد من المحيط إلى الخليج، ولها من الأتباع الملايين، فتسلب الديانة المسيحية التي لها في الوجود أزيد من سبعة قرون من الزمن مناطق نفوذها،

وبالنظر إلى فداحة الأمر وعظمته لم يكن بالإمكان لأوروبا الوقوف مكتوفة الأيدي دون ردة فعل تخول لها الوقوف ندا لند أمام هذه الحضارة الوليدة،

نرى أنه من الضروري الكلام عن أهم الدوافع التي أملت وجود الإستشراق واستمراره. فبعض الباحثين يراها أهدافا، والبعض الآخر يعرفها على أنما دوافع، وبعيدا عن الجدل نقول أنها الاثنان معا، فاهتمام الغرب بالشرق منذ بدايته حتى الآن لم يفقد شيئا من حماسته وقوته، وهذا لم يأتي من فراغ أبدا، بل وجهته دوافع ونوازع متعددة سنحاول اختصارها في التالي :

البعثات كانت مع أواخر القرن العاشر الميلادي، وهذه الخطوة هي التي مهدت لظهور ثمرات هامة بعد ذلك بقرن ونيف من الزمان منها أول قاموس لاتيني عربي إلى الوجود في القرن الثاني عشر الميلادي الذي يعتبره أغلب الباحثين الفترة التي تجسد فيها عمل الاستشراق وبالتالي نشأته الفعلية.

***- مراحل الإستشراق:***

تمیزت مسيرة الإستشراق عبر مختلف العصور منذ نشأته، كتطور تاريخي من حيث الآليات والأهداف, فقد كانت أغلب التقسيمات التي صادفناها تتفق على أن الاستشراق مر بثلاث مراحل أساسية، شكلت عموده الفقري، وشكلت صورة وجوده ودوره في الأحداث التاريخية, ويتم تقسيم مراحل الاستشراق حسب الدراسات إلى المراحل التالية :

***أ – الطور الأول :***

ويمكننا أن نطلق على هذا الطور عدة صفات أو أسماء مثل "طور التكوين" أو "مرحلة الولادة أو خاصة "مرحلة الاستشراق الديني". ولكل عنوان من هذه العناوين مرجعيته التي ستتجلى فيما يأتي من السطور.

العلاقة بين المسيحية والإسلام. ومنذ هذا اللقاء الأول والصراع يزداد ويقوى كل حين، وليس الأمر فقط لأن الإسلام كعقيدة وأسلوب حياة شامل بدأ يستميل قلوب الناس من عرب وغير عرب فقط ، لأن دولة الإسلام بدأت تتوسع واستمر توسعها على حساب مناطق كان النفوذ فيها لبيزنطة الممثلة للمسيحية، بل أيضا لأن العرب المسلمين أسسوا حضارة عالمية ذات أهمية بالغة في التاريخ البشري " الذي نقلت إليه تراث الحضارات القديمة، بعد أن استوعبتها وصقلتها، وأدخلت عليها أوجه التغيير والتبديل المطلوبة".

وكما أسلفنا فالصراع صار "صراعا على وجود لا صراعا على حدود". ومنذ الوهلة الأولى والغرب المسيحي مشدوه أمام عظمة هذه النهضة، مذهول أمام سرعة انتشارها، مرعب من قدرتها على التوسع، وأمام هذا كان لا بد من وقفة، فجاءت من رجال الدين المسيحيين من أساقفة ورهبان وغيرهم بغية وقف هذا الزحف.

وللوصول إلى هذا الهدف كان لابد من معرفة مدى قوة الإسلام، ومبادئه وتعاليمه والعمل عليها لنقده ونقضه، ولم تتسن الفرصة المناسبة لفعل ذلك بالشكل المطلوب إلا إبان ظهور الدولة الأموية في الأندلس والطفرة الحضارية والإنسانية التي تحققت آنذاك، فكان لهذا المعبر التاريخي بين الشرق والغرب دور هام في تهيئة الأجواء الأولى للبعثات التي على اختلاف مناطق تواجدها، حملت بين ظهرانيها أشخاصا كان هدفهم البعيد هو دراسة الإسلام لمعرفة كيفية محاكمته، ومن بين أشهر هؤلاء نجد "جربيردي أورلياك - gerbert de aurillac" الفرنسي المولود عام 938م، تخرج من جامعة قرطبة واعتبر من أوسع علماء عصره معرفة بالعلوم العربية وعين عام 999م حبرا أعظم وسمي بالبابا سلفستر الثاني، فأنشأ مدرستين عربيتين بروما وفرنسا، كما ترجم المؤلفات العربية بإسبانيا إلى اللغة اللاتينية, ولم يكن وحده الذي ابتعث إلى الأندلس وحواضرها بل الكثير من درس القرآن وتعاليم الإسلام فقط لينشر ما يستطيع من أفكار مغلوطة ومن أشهر هؤلاء نجد "بطرس المبجل الذي اعتبر أن الإسلام في حقيقته ما هو إلا هرطقة مسيحية. ومن أهم أعمال بطرس المبجل ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللاتينية لأول مرة سنة 1143م.

وظلت العقلية الغربية المسيحية تفكر بهذا الشكل إلى ما قبل الحروب الصليبية إذ كانت على معرفة ناقصة جدا بالشرق رغم التعايش في الأندلس الإسلامية، إلا أن التعصب الديني لم يدع لها مجالا للتفكير بطريقة موضوعية ومحايدة هدفها هو الوصول إلى الحقيقة, ومهما قيل فإننا يجب أن نقر بأن ما حدث في المرحلة الأولى كان له الأثر في رسم العلاقات وخطوطها العريضة بين الشرق المسلم والغرب المسيحي، هذا الأثر الذي ألقى ولا زال يلقي بظلاله إلى يومنا هذا.

***ب - الطور الثاني :***

لقد كانت للجهود التي قام بها الرهبان المستشرقون الأوائل، والدعاية التي حملوا لواءها ضد الإسلام كعقيدة وأسلوب حياة لها أثر في خلق نوع من التوجس والخيفة أول الأمر، لكنها سرعان ما تحولت إلى حقد وكراهية متأصلين وإلى عداء لامتنا العربية الإسلامية، وخاصة في الأوساط الشعبية الكادحة التي كانت تحت رحمة السلطة الكنسية في أوروبا، وقد عمل هؤلاء الدعاة بجد واجتهاد على استشارة العواطف الدينية لدى الشعوب الأوروبية الغارقة في الجهل والجهالة.

فقاموا بحروب والتي سماها الغرب حروب الاسترداد" وسماها العرب المسلمون" الحروب الصليبية", وجاءت هذه الحروب تعبيرا عن الشعور بالتحدي ونمطا صداميا في العلاقات الأوربية مع العالم الإسلامي يومذاك, بحيث استمرت تستنزف أوروبا وديار المسلمين على السواء طوال ثلاثة قرون متوالية بعد بدايتها عام 1097م ونهايتها عام 1291م عندما انتصر المماليك في معركة عكا التي كانت النهاية تلك الحروب الدموية بصورتها الطاغيه على الذاكرة الشرقية العربية، مثلت في الغرب نقطة تحول في مسار الإستشراق الأوروبي، إذ ومن خلال التغلغل الذي قامت به القوات المسيحية تمكن المستشرقون ولأول مرة من الاقتراب من المخزون المعرفي الذي تزخر به مكتبات الشرق ودكاكينه والاستفادة مباشرة منه، خاصة في نقل بعض العلوم التطبيقية كالرياضة، والفلك والطب والتي كانت أوروبا في حاجة إليها, وكانت تلك الحروب منفذا جديدا نحو معقل هذه المخطوطات في الشرق, بل استمر على مدار القرون التالية

هذه الأسباب والغايات مجتمعة أدت إلى زيادة الاهتمام بالشرق، والانكباب على تراثه الذي انتقل إلى أوروبا عن طريق المعابر الجغرافية المعروفة ولا يفوتنا ذکر سبب آخر مهم دفع المسيحيين إلى تعلم اللغة العربية واللغات الشرقية الأخرى، وهو الرغبة في التبشير، خاصة في ظل العجز الذي أظهره الرهبان والمبشرون، وقد فتح هذا كله بابا

للمستشرقين في هذا العصر، تمهيد لظهور الاستعمار الغربي في القرون اللاحقة .

***ج- الطور الثالث:***

خلال القرون التي تلت الحروب الصليبية ا قام أوائل المستشرقين من رهبان ورحالة ورجال دولة, بجهود أتت أكلها في إدراك أوروبا لحجم التطور الحضاري, وقد عرف الاوربيون قوة تأثير الحضارة الإشلامية ومدى خطورتها علي حضارتهم فحاولوا التصدي لها بالحرب للتعبير عن حقدهم ثم استخدموا سلاحا أخر وهو سلاح الكلمة الموجهة, فكتب المستشرقون عن الدين الإسلامي ونبيه وعن علوم الإسلام، محاولين تشوية صورته, رغم اختلاف المستشرقين ووجود المحايدين.

فنجد منهم من كتب بصدق وأمانة, وبعد اتصال الغرب بالحضارة العربية اتصالا فعليا ومؤثرا ظهرت طلائع المستشرقين الذين استولوا على الآلاف من الكتب والمخطوطات العربية, واصبحت مصدرا لهم قديما وحديثا"، وبعد الصدام النباشر بين الغرب ىالشرق وجدوا أن الحل السلمي هو البديل وكانت أفضل وسيلة لتحقيق ذلك، هو التبشير لتحقيق الأمال الضائعة وأهم من دعا لذلك هو روجر بيكون Roger batron فانكبوا يدرسون تراث الشرق الذي نقل اليهم عن طريق صقلية والاندلس والحروب الصليبية فأسسوا مدارس اللغات الشرقية في عواصم بلدانهم وخصصوا كراسي مستقلة في كبرى الجامعات لهذا التخصص, وقد أنشات المطابع والمجلات والمكتبات, وقاموا بترجمة التراث الأنساني عن العربية واللغات الشرقية.

فأنشأ دون ریمون الأول رئيس أساقفة طليطلة مكتب المترجمين، سنة1130م, وقد ساهم الرهبان في حركة الترجمة لمختلف العلوم وقامت البابوية بدعم الاستشراق وننضيمه, وساندهم الأمراء, وعكف هؤلاء المستشرقون على التراث بحثا وتحليلا, ولم يتركوا جانبا من جوانبه إلا تناولوه بالدراسة والتحقيق فتكونت لديهم معارفا واسعة عن الشرق من حيث سكانه وعاداته واقتصادياته وطرق تجارته ومواطن القوة والضعف فيه، فأرادوا معرفة هذا العالم والسيطرة عليه, لكنهم اصطدموا بالعثمانيين مدافعين عن الاسلام, وبعد أن أوقفوا زحفهم قاموا بالرحلات والكشوفات الجغرافية في القرن الرابع عشر، رافقها نمو لكتابات الرحالة التي أمتزج فيها الواقع بكثير من الخيال كما في كتابات مارکو بولو (1254-1324م ) و کان لتلك الرحلات تأثيرها على نمو الخيال الشعبي الأوروبي إزاء الشرق وبالتالي على الأدب.

وفي القرن السابع عشر عاد الاهتمام الأكاديمي والعلمي للبروز نتيجة لما رافق عصر النهضة الأوروبية من شعور بالتفوق الحضاري, نتيجة الاحتياجات الإقتصادية والسياسية التي فرضها النظام الرأسمالي، فقد سبق تغلغل بريطانيا في الهند وحملة نابليون على مصر

فالمستشرقون كانوا على هيئة قناصل ورحالة وسفراء يهتمون بكل النواحي التي تخص الشرق عموما وكانوا يحصلون على المخطوطات ونوادر الكتب التي لايعادلها ثمن.

فقد استنزفوا تلك الثروات الثقافية لشعوب الشرق وهو أمر بالغ الأهمية يبين لنا الأعمدة التي قامت عليها الدراسات الاستشرافية بالإضافة إلى الأهداف السياسية التي سعت إلى تحقيقها مختلف الدول الغربية عن طريق رحالتها وقناصلها وجيلهم من المستشرقين الذين مهدوا الأرضية للتغلغل الاستعماري الأوروبي المباشر, وقد برز في القرن الثامن عشر والتاسع عشر عدد كبير من المستشرقين منهم سلفستر دي ساسي ولوي ماسينون وارسنست رينان في فرنسا وجولد يزيهر ونولدكه وكارل بروكلمان في ألمانيا ، ثم برز في انجلترا في القرن العشرين مرجيلوث وهاملتون جب واربل, وكانت لهم اهتمامات معرفية وبحثية مختلفة

نتج عنها ظهور الكتب والترجمات وأسست الجامعات والمعاهد المتخصصة بالدراسات الشرقية وحققت المخطوطات ، ونشرت في المجالات والكتب، و في النصف الثاني من القرن التاسع بدأت سلسلة المؤتمرات الدولية يعرضون فيها ما توصلوا إليه في بحوثهم .